جامعة دمشق ـ كلية الشريعة

مؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية

ورقة مقدمة بعنوان

منهج الاعتدال في الخطاب الدعوي

د. توفيق رمضان

كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

مؤتمر التسامح الديني في الشريعة الإسلامية
١٩-٢٠ /رجب/١٤٣٠هـ الموافق ١١-١٢ /تموز/٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج الاعتدال في الخطاب الدعوي

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وبعد:

فإن الأمة اليوم بأشد الحاجة إلى قراءة تأمل لواقعها الأليم، وإعادة النظر في طريقة طرح الخطاب الدعوي. لعل في ذلك ما يمكنها من النهوض والعودة إلى الموقع الصحيح الذي يجب أن تتبوأه.

وبادئ ذي بدء لا بد من الإشارة إلى أمور:

1- الداعية المسلم داعية إلى الله سبحانه، داعية إلى دينه ، داعية إلى طاعة الله وعبادته، داعية إلى طريق نهايتها جنة عرضها السموات والأرض، و المتنكب عنها يمضي إلى شقاء في الدنيا وشقاء في الاخرة.

ومن ثم فإن المصالح الشخصية يجب أن لا يكون له وجود في عمل الداعية. إنه يتعامل مع الله الذي يعلم السر وأخفى، والذي سنقف بين يديه في يوم وصفه سبحانه بقوله:(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية). وإنني أعتقد أن المشكلة الأخطر التي يعاني منها الخطاب الدعوي أن كثيراً من الأنشطة الدعوية والمؤسسات الدعوية يرى أصحابها أنها أنشطة ومؤسسات تحمل السمة الشخصية سواء كانت شخصية تتمثل في رجل أم كانت تتمثل في مؤسسة، أم كانت تتمثل في مدرسة فكرية ومذهب أو كانت تتمحور حول فئة ...

وما لم يصحح هذا التصور فيرى كل منا في نشاطه عبودية لله وحده، ينسى فيه نفسه، وينسى فيه الجماعة والفئة وغيرها مما يمكن أن يكون هدفاً ينازع إخلاصه لله، فإن هذا الحديث لن يكون ذا معنى وفائدة. سواء على صعيد التعامل مع المسلم الآخر أم مع غير المسلم.

2- نحن اليوم بأشد الحاجة إلى توحيد الكلمة وجمع الصف، فعدونا يعمل جاهداً لتمزيق كلمتنا زيادة على ما هي عليه من التمزق، ولشرذمتنا أكثر مما نحن عليه من التشرذم. يريدنا أشلاء ممزقه تنهش في وجودنا حرابه وتشوه من رونق دعوتنا أبواقه. ونحن الذين قال لنا الله سبحانه:

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال لنا (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) وقال لنا (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

3- دعوتنا أيها السادة إنما تتجه إلى إسعاد البشرية في ظل منهج الله وشريعته، ولذا يجب أن تكون قلوبنا مفعمة بالرحمة والشفقة على كل الناس، ألم يقل ربنا سبحانه لنبيه ^ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ؟؟ حتى أولئك الذين يحاربوننا ويضمرون لنا الكيد والعدوان. نرجو لهم الخير والهداية، ونسعى جاهدين لتوضيح حقيقة دعوتنا لهم بالحكمة والموعظة الحسنة. وإن الساعة التي يستيقظ عقل الخصم وقلبه لوجه الحق الذي ندعو إليه لهي ساعة سعادة ومسرة في حياتنا. و هي ساعة نشكر الله تعالى على ما تحقق فيها. إن الحقد والضغينة وإرادة الشر لا يجوز أن يكون لها مكان في قلوبنا. وإنما قلوبنا أوعية للشفقة والرحمة نحو الخلق كلهم. وهذا لا يتنافي مع شريعة الجهاد. فللجهاد فلسفته التي قد يضيق المقام عن بيانها، ولكني أختصرها بكلمة واحدة: إن الجهاد هو المبضع الذي يستخدمه الطبيب الجراح لإنقاذ جسم البشرية من سرطان الشر فيه.

وبعد فإن الخطاب الإسلامي تؤثر فيه عوامل عدة، من أهمها:

1- مضمون الخطاب.

2 - شخصية الداعية.

3- المخاطَب.

4- الظروف والأوضاع التي يصدر فيها الخطاب.

أما **مضمون الخطاب**، فلن يختلف ولن يتبدل. لأنه دعوة إلى ما قد اكتمل وتمّ: عقيدةً وتشريعاً وأخلاقاً.

وهذا المضمون شكل من أشكال الثوابت الكونية، هو كنظام الشمس والقمر ونظام الخلية والتكاثر. على الرغم من أنه يتضمن ثلاثة جوانب هي:

1- الخبر المتضمن للحقائق الاعتقادية التي يجب التصديق بها، مؤيدة بأدلتها وبراهينها.

2- النظم التشريعية (بما فيها من أوامر ونواه) تنظم جميع جوانب الحياة، وتضبط مختلف العلاقات.

3- القيم الأخلاقية التي تسمو بسلوك الإنسان وعلاقاته إلى المستوى الذي يليق بإنسانيته سلوكاً ومشاعر.

و على الرغم من هذا التنوع في مضمون الخطاب، إلا أنه ثابت لا يتغير؛ إلا بمقدار ما تتغير أسس ومرتكزات بعض الأحكام التشريعية التي بنيت على متغيرات كالمصالح والأعراف.

ولكنه مع ذلك نام نمو الكائن الحي، متجدد، يستجيب لمعالجة كل المستجدات.

أما الداعية أو الشخص الذي يوجه الخطاب:

فهو في نظر الإسلام مبلغ يحمل الإرث النبوي العظيم، ويتحمل مسؤولية نقل هذا الخطاب إلى العالم، بدءاً من العالم الضيق الذي يحيط به(وهو أسرته وخاصته)، وانتهاءً عند أبعد فردٍ من هذه المعمورة.

حامل الخطاب إلى الآخرين يجب أن يحمله فكرة يترجمها خلقه وسلوكه وتصرفاته. فالإسلام لا تتقبل مبادئه أن ينشرها من لا يمثلها عقيدةً يؤمن بها، وشريعةً ينضبط بأحكامها، وأخلاقاً يصطبغ بها.

ألم يقل ربنا جل شأنه:﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾. [البقرة: 44]؛ الصف:4]

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾

وفي الحديث الصحيح: "يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه في النار فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى. كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه" [رواه مسلم]

والداعية المسلم يمكن أن يحمل خطابه إلى الآخرين بلسانه وقلمه، ولكن الأجدى والأقوى في نشر دعوته - مع لسانه وقلمه- أن ينشرها بسلوكه وأخلاقه، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال.

وحامل الخطاب الدعوي يجب أن يكون مخلصاً لله في دعوته، لا يبتغي بها غير رضوان الله تعالى، فالدعوة ليست مجرد عمل حركي، ونشاط اجتماعي أو سياسي، يجمع المرء من خلاله الأتباع والمعجبين بكلمته وأسلوبه. بل الدعوة عبادة يتقرب بها المرء إلى الله ويرجو بها منه القبول. التزاماً

بقوله تعالى: ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾.[فصلت:33] وقوله سبحانه: ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾.[النحل: 125]

إنه يرى نفسه مجرد خادم لدين الله، فإن لقيت دعوته استجابة فهو فضل الله تعالى، أنار به قلوب المستجيبين، وكما يقول ابن عطاء الله السكندري:[من تمام فضله عليك أن خلق فيك ونسب إليك][1].

أما قال الله تعالى ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾[القصص: 56]

أمّا إن وجد إعراضاً وصداً فإن عليه أن يصبر كما صبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما صبر مَن قبلَه ومَن بعدَه. يصبر، ويخاف على المعرضين، يرق قلبه عليهم ويشفق ، ويسأل الله لهم الهداية. فقد ذكر لنا ربنا تبارك وتعالى تألمُ الدعاة على المعرضين فقال ناقلاً عنهم:

﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ .[يس: 30]

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحُجَزِكم وأنتم تقحمون فيه" [رواه مسلم بروايات متعددة].

ألم يرق قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشاردين حتى قال له الله تعالى: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾. [فاطر: 8] ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾.[الكهف: 6]

إن قلب الداعية يجب أن يكون نقياً عن مشاعر الغيظ والحقد أياً كان موقف المدعو. إن عليه أن يدعو ويرجو الله أن يهدي قومه، ﴿فذكر إنما أنت مذكر ۞ لست عليهم بمسيطر ۞ إلا من تولى وكفر ۞ فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾.[الغاشية: 20،24]

فالله تعالى هو الذي سوف يتولى حسابه وعقابه، أما الداعية فإن واجبه أن يبلغ الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

[1]: من حكم ابن عطاء الله السكندري

وألفت النظر هنا إلى أنني أتحدث عن منطق الدعوة ومنهجها وأسلوبها، ولست بصدد موضوع الجهاد عند وجود مقتضياته وموجباته. فللجهاد ميدانه.

ثم إن على الداعية أن يكون على دراية وعلم بما يدعو إليه، بحيث يستطيع أن يحسن عرض ما يدعو إليه و يتقن إبراز حقائقه، مؤيدة بالحجة البينة والبرهان القوي. عليه أن يكون على علمٍ بالعقيدة ومؤيداتها العقلية والنقلية، وبالأخلاق الفاضلة التي حض عليها دينه، مدعومة بالنصوص المؤيدة، والمحذرة من مخالفتها. وبأحكام شريعته سواء في جوانب العبادة أم في المعاملات المالية أو الأسرية أو الجزائية أو غيرها.

ويجب أن يكون الداعية على جانب من الوعي والثقافة بحيث يعيش في واقع عصره ومستجداته، ويدرك ما يحيط بدعوته من مشكلات ومكائد وشبهات.

أما **المخاطب الذي توجه إليه الدعوة** فهو أحد ثلاثة:

- مسلم مقصر، وكلنا ذاك الرجل.
- مسلم مخالف.
- غير المسلم.

وأياً ما كان المدعو فإن على الداعية أن يفهم شخصية المدعو جيداً، بصورة تساعده على حسن عرض دعوته عليه.

- **أما المسلم المقصر** فإنه في الحقيقة أولى بدعوتنا اليوم. وكلنا مقصر ،أجل، فنحن أحوج إلى من يدعونا وينصحنا، وإن تفاوت التقصير بين مسلم وآخر.

الدعوة إلى أن يقرأ كلٌ منّا ذاته، وسلوكه، وأخلاقه، وحاله مع ربه. ثم يضع ذلك كله أمام ميزان حكم الله وكتابه.

أن يدرك كلٌ منّا أنه مقصر، وغافل عن حقيقة حاله. وأنه متجه إلى أجله، وأن كل ساعة تمضي من حياته تبعده عن مولده وتدنيه إلى أجله، إن علينا أن نتذكر أننا *كما يقول الحسن البصري* :[إنما نحن أيام وكلما مضى يوم نقص بعضنا، ويوشك أن تنتهي أيامنا لنقف بين يدي الملك الديان] والله تعالى يقول: ﴿يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾.[الحاقة: 18]

-**أما المسلم المخالف** فإن مخاطبته يجب أن تستند إلى الالتزام بأدب الحوار الذي أمرنا ربنا أن نلتزم به مع غير المسلم، فضلاً عن المسلم الذي قد يختلف معنا في قليل أو في كثير. ألم يقل ربنا تبارك وتعالى:﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.[النحل: 125]

إذا كان ربنا سبحانه يقول لنا:﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم﴾.[آل عمران: 64] فأجدر أن تكون الكلمة السواء القائمة بيننا وبين المسلم المخالف مرتكزاً للتلاقي، ومنطلقاً لقبول الحوار النابع عن احترام الرأي الآخر.

ولكن هذا الحوار يجب أن يكون مرتكزاً على ثوابت مشتركة، ونية مخلصة، وإرادة جادة لمعرفة الحق بغض النظر عن جهة ظهوره.

لقد جاء النص الشرعي في الكتاب والسنة _ سواء كان قطعي الثبوت أم ظنيه [وأكثر نصوص السنة ظنية الثبوت] على وجهين اثنين:

1- منه ما كان قطعي الدلالة على معناه، فكان نصاً لا يحتمل التأويل. ويمثل هذا النوع الجزءَ الأقلَّ من نصوص الشرع.

2- ومنه ما كان ظني الدلالة، ظاهراً، ولكنه يحتمل التأويل.

وقد جاءت معظم نصوص الشريعة مجالاً للبحث والاجتهاد والتأويل، مما دفع بالمجتهدين من العلماء إلى شحذ الهمة وبذل الجهد في فهم دلالاتها.

ولما كانت محتملة الدلالة فقد تباينت تأويلاتهم وفهومهم لها، وإذ كانت مرنة الدلالة فقد كان في تفسيرها بأكثر من معنى سعة.

وهذا الاختلاف والتباين يحمل في طياته تحريضاً لذوي الكفاءة والعلم لبذل الجهد في فهم النص، مما يجعل اختلافهم _ وهم المتفقون على الهدف_ مظهر ثراء وغنى، وحركة في الذهنية الفقهية تغني فقهنا الإسلامي.

وإننا اليوم لنشعر بمدى الحكمة الإلهية في ذلك، إذ صار فقهنا بهذا الثراء والتنوع مجالاً رحباً لاختيار ما ينسجم مع مستجدات العصر والنوازل.

واجتماعات المجامع الفقهية التي تمثل أطيافاً متعددة للمذاهب الإسلامية المختلفة، والتي تتمخض في نهاية المطاف عن رؤية واحدة لحلول عملية، تتآزر في وضعها مختلف المذاهب، مظهر لهذا الثراء والحيوية.

ولا بد من الإشارة إلى أن على فئات المسلمين أن تجعل من الحوار المخلص، القائم على سعة الفهم، وقبول الاختلاف الناجم عن ظنية الدلالة في مختلف النصوص، اجتهادات توطد الروابط وتزيد في تعاون الأمة على حل قضاياها.

وأن علينا أن ننبذ التطرف الذي يدفع البعض إلى توجيه الاتهامات إلى البعض الآخر بالكفر والتبديع والشرك في مسائل اجتهادية محتملة. أو في خلافات، إن كانت، فقد صارت في ذمة التاريخ. ومضى أصحابها إلى ربهم، ولعل مناكبهم تتزاحم في رضوان جنته، بينما يتناحر حولها أبناء هذا العصر من غير ما موجب.

إننا نعيش اليوم في مواجهة يجب أن تجمع ولا تفرق، وأن توحد لا أن تمزق.

- أما الفئات غير المسلمة:

فإن علينا أن نتذكر أننا نتعامل - في دعوتنا لهم – مع [الإنسان] الآخر بكل ما تحمله كلمة [الإنسان] من خصائص ومعان.

إنه يحمل [الفطرة] التي نحملها، وإن غطيت بكثيرٍ من الشوائب. وينعم بـ [العقل] الذي ننعم به. والعقل هو ذلك الميزان الدقيق الذي يمكن الاحتكام إليه. إنه الحكم العدل، عندما يكون حراً. إنه وحدة قياس لا تتباين أحكامها ما دام حراً وصحيحاً، وما دامت المقدمات التي قدمت إليه صادقة. ولذلك نجده يبحث عن ذاته، ويبحث في قصة الكون والحياة. وسوف يصل إلى الحقيقة في يوم من الأيام.

تحضرني الآن صور أعرضها وأحب أن نفهم منها المعنى الذي أشرت إليه

أذكر أنني كنت يوما في مسجد من مساجد الكويت وخرجت لأتوضأ، فرأيت قريباً من باب المسجد شاباً صينياً بادرني بالتحية وقال لي باللغة الإنكليزية: أريد أن أصبح مسلماً، فرحبت به وأدخلته

المسجد ليبدأ الحديث معه صديق لي كان معي في المسجد، وبعد أن توضأت تابعت معهما الحديث. وما هي إلا ساعة أو أقل حتى نطق بالشهادتين وأسلم. وبدأ يسأل عما يجب عليه أن يفعله بعد الآن. والذي لفت نظري أنه شاب منقطع عن أهله. يعمل في الكويت في موقع لا بأس به. فهنأناه على الإسلام. وذكرنا له أنه قد ولد بهذا الإسلام من جديد. وأنه صفحة بيضاء نقية. فأطرق يتأمل ثم سأل: وأمي وأبي كيف لي بأن يدخلا الإسلام؟

لقد تحركت عواطف البنوة والرحمة الفطرية نحو أبويه غير المسلمين فأشفق عليهما ... والقصة الثانية لفتاة نمساوية لم يرو ظمأها ما فهمته عن دينها، فأخذت تبحث عن الدين الذي يلبي تعطشها الروحي. فصُرِف بصرُها إلى البوذية، فما كان منها إلا أن سافرت إلى الهند واعتنقت البوذية، وأخذت تمارس طقوسها بحرص، وبعد أربعة أشهر أو أكثر لم تجد في ذلك ما يقنعها. فقررت أن تزور سوريا، للتعرف على الإسلام. وبواسطة صديقة لها عربية زوجها نمساوي زارتني وتحدثت لها عن الإسلام خلال ثلاثة جلسات والأخت العربية تترجم لها. وبعد يومين أخبرت بأنها قد أسلمت، وعلى قاعدة متينة إن شاء الله. واحتفل الأخوات بإسلامها ثم توجهت إلى بلادها لتلقى العناية ممن هم في النمسا.

أيها الإخوة

إن غير المسلم الذي نوجه دعوتنا إليه[إنسان] يحمل العواطف الإنسانية، وإن أُصيبت بشيء من التبلد والتشوه، إلا أنه يحمل تلك العواطف التي يمكن أن تستيقظ وتنتبه يوماً ما.

يمكن أن تستيقظ فيه مشاعر الرحمة، ومعاني الحياء. والمحبة للخالق المنعم. يمكن أن تحرَض فيه معاني الحب والحنان حتى وإن رانت عليها كثافات المادية.

إن هذه المشاعر موجودة، هذه العواطف موجودة، ولكنها في حالة رقاد. ويمكن أن تستيقظ لتغدو ساحة لاستقبال أسمى المؤثرات الإيجابية. بل إنها عندئذٍ تتعطش لغذائها الذي تحتاج إليه.

إن أساس العلاقة بيننا وبين غير المسلم هو كون كلٍ منّا إنساناً كرمه الله بالإنسانية قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ وأنه المستخلف في الأرض، والذي عهد الله إليه بأن يحقق عدالة الله في هذه الأرض، وأن يكون مظهراً لحكمته ورحمته وعدالته من خلال تطبيق شريعته.

أجل، كلٌ منّا [إنسان] يتمتع بمقومات الاختيار من عقلٍ وفهم وإرادة تمنحه القدرة على اتخاذ [القرار]، ولذلك فإنه مسؤول بين يدي الله تعالى.

لذلك فقد أقام كتاب الله تعالى لتعاملنا مع غير المسلم أُسساً تتمثل فيما يلي:

1- الاحتكام دائماً إلى موازين العقل والعلم [والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع كما هو معروف] في كل ما نقدمه إلى الآخرين أو ما يقدمه الآخرون إلينا.

وقد ألزمنا كتاب ربنا سبحانه بعدم اتباع ما لا يقوم على أساس علمي فقال: ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم﴾. وأداة العلم موجودة لدى الإنسان من خلال ما حباه ربه من حواس وعقل .قال تعالى :﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾.[الإسراء: 36]

وحذرنا من العصبية والتمسك بالمواقف من غير دليل أو بينة، سواء كان ذلك على وجه التبعية للآباء والأجداد، فقال:﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾ [البقرة: 170] أم كان على وجه الانقياد وراء نزوة النفس واتباع الهوى: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾[ص: 26].

ويوضح كتاب الله تعالى أن الإيمان رؤية علمية، فيقول:﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾[سبأ: 6]، ويطالب لكل دعوى بالبرهان:﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة: 111]، ويرفض تعطيل ملكات المعرفة والفهم ويعد ذلك هبوطاً عن مستوى الإنسانية:﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف : 179].

2- رسم المسلمون بناءً على ذلك منهجاً للوصول إلى الحقيقة، ألزموا أنفسهم به، واحتكموا إليه في حوارهم مع الآخرين. فقالوا:[إذا كنت ناقلاً فالصحة وإذا كنت مدعياً فالدليل]، ودليل الحكم المادي ماديٌ يخضع للتجربة والمشاهدة. ودليل الحقيقة العقلية برهان عقلي.

أما الغيبيات التي لا سبيل للعقل أن يستقل بمعرفتها، ولا تخضع للدليل الحسي، فإنه الخبر الصادق الذي دلت البراهين العقلية على صدقه.

3- وقد أمرنا في الحوار أن نلتزم مبدأ ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ورسم معالم أدب الحوار الذي لا يلزم الآخر بأحكامنا، واعتناق معتقداتنا. بل نطرح فكرتنا ملتزمين بحكم الدليل، مفترضين ثبوت حكمنا أو بطلانه، لنتيح للآخر أن يدلي برأيه.

ويتجلى هذا المنهج واضحاً في هذا النموذج من الحوار القرآني ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض، قل الله، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلالٍ مبين.قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾[سبأ 24-25].

أثار الدعوى، وأدلى بحكمه الذي يعتقده، ثم أتاح مجال الحوار واضعاً أمام الآخر الفرصة لإثبات العكس وتقبله لما يثبته الدليل فقال:﴿..وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾.

ثم قطع الطريق بلطف على دعاوى واتهامات توجه إلينا، فأوضح أن كل نفس بما كسبت رهينة. ولكنه جاء بأسلوب فيه منتهى الرقة واللطف فقال: ﴿قل لا تسألون عما أجرمنا[مما يتهموننا به] ولا نسأل عما تعملون﴾ولم يقل عما تجرمون!!.

إن هذه الدعوة الهادئة اللطيفة والدافئة إلى الحوار بحثاً عن الحقيقة لا تحمل أي معنى من معاني القهر والإرغام، إنما هي إثارة للأذهان والعقول للبحث عن الحق.

ويأتي التحذير بعد ذلك ليحمل العقل مسؤولية البحث، والتحذير من الحكم المجازف بعيداً عن حرية القرار العقلاني الفطري: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾.[الكهف: 29]

على أنه ليس من حقنا أن نكره الآخر على الإيمان إكراهاً: ﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي﴾.[البقرة: 256]

ومهمة الداعية- في دعوته- أن يذكر ويدعو:﴿فذكر إنما أنت مذكر ۞ لست عليهم بمسيطر ۞ إلا من تولى وكفر ۞ فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾.[الغاشية: 20،24]

وهذا مما يجعلنا نميز بين أمرين:

1- دور الداعية في دعوته، وأنه ليس من حقه أن يكره الآخرين على اعتناقها.

2- مسؤولية الإنسان عن البحث عن الحقيقة والتزامها.

وهذا بالتالي يلزم الداعية في خطابه بالمنهج الحكيم الذي عرضناه، من حيث افتراض أي من الطرفين صاحب الحق، وعدم توجيه الحكم سلفاً ببطلان دعوى الآخر.

إن محاورة الآخر بمنطق الحجة والبرهان، انسجام مع احترام إنسانية الإنسان، وارتقاء بالذات وبالآخر إلى السدة اللائقة بكل منهما.

أيها الأخوة:

أعود فأكرر القول بأن المسؤول عن إبراز صورة الدعوة والخطاب الإسلامي عند الآخرين إنما هم [نحن]. فإن برزت الصورة حسنة فإن ذلك لحسن عرضنا لها، وإن برزت الصورة مشوهة فإننا نحن المسؤولين عن تشويهها.

إن الجالية الإسلامية الموجودة في العالم الغربي، أو في خارج العالم الإسلامي اليوم، هي الصورة التي تترجم - في نظر الآخرين - حقيقة الإسلام، في مختلف جوانب سلوكها وتصرفاتها. وإن الأضواء مسلطة عليهم قطعاً لعرض الإسلام من خلال أوضاعهم وتصرفاتهم.

والحق يقال: إن كثيراً من مشكلات العالم الإسلامي وأمراضه، التي يعاني منها في بلاده، تبرز في خارج العالم الإسلامي بصورة مجهرية، وبألوان فاقعة.

- وإن من أخطر هذه المشكلات: مشكلة التفرق والتشرذم، والتي يعدها الآخرون حجة مفحمة في تشويه ديننا والإساءة إلى مفاهيمه.

بل لعلهم يثيرون أسباب الخلاف ليراقبوا ردود الفعل، ثم يسلطون الأضواء على ردود الفعل تلك، ليقولوا: هذا هو الإسلام!!.

- ومن أخطر هذه المشكلات: جهل المسلمين بدينهم. وإذا كان عامة المسلمين جهلة بدينهم - بصورة من صور الجهل - فإن المسلمين في خارج العالم الإسلامي مشكلتهم هذه أكبر. إذ هم أفقر إلى وجود الحد الأدنى من المرجعية التي يمكن أن تصحح بعض أخطائهم.

لذلك فإن الكثير من تصرفاتهم تعكس مدى الحاجة إلى معرفة حقائق الإسلام. وتبرز صورة سيئة جداً غريبة عن حقائق الإسلام ورحمته وعظمته.

لقد ذكر لي أحد الإخوة المقيمين في الولايات المتحدة في أمريكا أن أحد المراكز الإسلامية في إحدى الولايات تعرض لمحاولة إحراق بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر. فشجب أبناء تلك الولاية تلك المحاولة. وأرسلوا برقيات و باقات من الورد إلى المركز، تعبيراً عن تعاطفهم. بل تطوع البعض للتناوب في حراسة المركز على مدار الساعة. وأرسل أحد أعضاء الكونغرس إلى المركز يرغب في زيارته للغرض نفسه. واجتمعت إدارة ذلك المركز لبحث إمكان استقبال هذا العضو وبعد البحث والتشاور قررت إدارة المركز استقبال عضو الكونغرس في خارج المركز عند موقف السيارات، لا في المركز. ونسي هؤلاء الجهلة أن النبي صلى الله عليه وسلم استقبل في مسجده وفد ثقيف وهم مشركون. واستقبل وفد نجران وهم نصارى .!!

أيها الإخوة:

إن مستجدات العصر قد حملت إلينا أمرين متناقضين:

- أحدهما سلبي: ردود الفعل غير الصحيحة من قبل بعض الجهلة الذين لم يتعرفوا على دينهم، وانطلقوا من ردود الفعل تجاه الموقف العدائي الذي أبرز مدى الحقد والعداء نحو الإسلام، عقيدةً وتشريعاً وعبادةً، والذي تفاعل في نفوس حاملي تركة الحقد الصليبي الأسود في حربيه الأولى والثانية، والحقد الجديد الذي نجم عن مظاهر الصحوة، التي ظهرت آثارها في الجالية الإسلامية في بلادهم. وقامت الدعوة بالانتشار في عقر دارهم. فبدلاً من أن يمثل المسلمون هناك التربية الإيمانية التي وجهنا إليها نبينا عليه الصلاة والسلام في أسلوب التعامل مع غير المسلمين، والحوار معهم بالتي هي أحسن، وأن يفهموا أن بعثة النبي ^ إنما كانت رحمة للعاملين، بدلاً من ذلك كله واجهوا الناس بالعنف والشدة والقسوة. والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: بشروا ولا تنفروا، فمضى هؤلاء ينفرون ولا يبشرون. فحققوا بذلك هدف الحاقد الذي يصد عن الحق ويمنع انتشاره.

- والآخر إيجابي، وهو يتمثل في أكثر من عنصر:

1- الوعي العلمي لدى المجتمع الغربي المعاصر، والذي جعله أكثر استعداداً لفهم حقائق الإسلام.

2- الظمأ الروحي الذي يعاني منه الإنسان الغربي، والذي لم يجد ما يطفئ ظمأه في بقايا النصرانية، أو في معتقدات البوذية والهندوسية.

2- سهولة الاطلاع على الإسلام من خلال كثرة أبناء الجالية الإسلامية في العالم الخارجي، ومن خلال وسائل الاتصال والثقافة والتواصل الثقافي بين الشعوب، التي سهّلت إمكانية الحوار عن بعد. أو من خلال الملتقيات العلمية والثقافية، التي تتم هنا أو هناك، والتي أتاحت الفرصة للتعرف بصورة من الصور على بعض معالم فكر الآخر ومفاهيمه.

2- التردي الخطير الذي يعاني منه المجتمع المعاصر، ولا سيما في الغرب، حيث انهارت الأسرة وتفكك المجتمع وشاعت الأمراض النفسية والاجتماعية وأعيت أوضاعهم الباحثين الاجتماعيين والمفكرين عن وضع حل نافع يعالج أمراضهم.

أيها الأخوة:

إن الخطاب الإسلامي يجب أن يحمل في طياته معاني الفكر الواضح بحقائقه الاعتقادية، والمرتكز على أدلته العلمية. وأن يحمل المعنى الإنساني الذي يقدم للغرب والعالم كله العلاج الذي يداوي به جراحه، ويحل مشكلاته الاجتماعية والنفسية، والاضطرابَ الفكري الذي يجعله يشعر بنوع من الفصام في شخصيته، والكآبة في نفسيته.

لقد قدم لنا الغرب الكثير من الخير والكثير من الشر. ولقد آن الأوان أن نخاطبه بأننا نملك أن نقدم له مقابل المعروف معروفاً لا غنى له عنه، وأننا نملك أن نقدم له مقابل الفكر فكراً واعياً وقلباً يقظاً، يستطيع أن يقهر منكره، ويهزم عدوانه بالكلمة أولاً وبأعظم التضحيات إن اقتضى الأمر ثانياً.

ولكننا لن نستطيع أن نقدم إلى الغرب الصورة الواضحة القوية إلا بمقدار ما نترجمها في واقعنا، وفي فكرنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وفي صلتنا مع ربنا سبحانه وتعالى.

فنحن بحاجة إلى الغرب، والغرب بحاجة إلينا، فلماذا لا نلتقي معه على الإصلاح؟

ونحن والغرب بحاجة إلى مراجعة ذواتنا بجرأة قبل أن نراجع الآخرين.

أعود فأقول ما قاله الله تعالى لنا: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون). هذا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

د. محمد توفيق رمضان / جامعة دمشق – كلية الشريعة